إلى أبي وأمي مع التحية

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 25 أكتوبر 2020 بقلم: الدكتور زكريا خنجي

قال: قررت ذات يوم أن آخذ إجازة من العمل والحياة، فقررت مع عائلتي أن نقضي عدة أيام على ساحل البحر، فنحن فعلاً نستحق مثل هذه الإجازات بين فترة وأخرى، وكان قرار الأسرة أن نقوم بتأجير شاليه صغير نبيت هناك، ونستمتع بالإجازة لمدة يومين أو ثلاثة، فعلاً قمنا بترتيب الموضوع، وقمنا بحجز الشاليه وترتيب كل الأمور اللوجستية، فانطلقنا في اليوم المحدد والساعة المحددة.

وصلنا إلى الشاطئ، وكان المكان رائعًا وجميلاً، والبحر كان من أجمل ما يمكن، يبدو أن المؤسسة المكلفة بهذا المكان والشاطئ مؤسسة راقية ومهتمة بالمكان بصورة كبيرة.

استمتعنا في اليوم الأول، فقد انقضى في السباحة بالبحر، وتناول الغداء، وفي الليل اشترينا قطعًا من الأنواع المختلفة من اللحوم وقمنا بحفلة شواء، وسهرنا على ساحل البحر حتى الساعات الأولى من الفجر، ولم نأو إلى فراشنا إلا بعد أن صلينا الفجر، فقد كان الأولاد في قمة السعادة والمرح، لذلك لم يكونوا يريدون أن تضيع عليهم الأوقات في النوم والراحة، وإنما كانوا يقضون جل وقتهم في البحر والجري واللعب والضحك.

في اليوم الثاني استيقظنا حوالي منتصف النهار، وبعد تناول وجبة خفيفة نزلنا إلى الشاطئ لنقضي الجزء الأكبر من الوقت على الشاطئ والبحر، نفس الوجوه، نفس الجو، نفس المرح، إلا أنه لفت نظري وجود امرأة مسنة تجلس على كرسي في مكان بعيد ومعزول عن الناس، لم تلفت نظري في بداية الأمر كثيرًا، فهذا شاطئ عام ومن حق الجميع أن يقضوا جزءًا من وقتهم هنا ويستمتعوا، ربما «جاءت مع أحد أبنائها.. ربما».

وعندما وصلت إلى هذه القناعة بشأن المرأة المسنة، رجعت إلى جو المتعة الذي أنا فيم مع عائلتي، ولكن شعرت بنوع من الربية بخصوص تلك المرأة المسنة، فكنت بين كل فينة وأخرى ألقي نظرة خاطفة عليها، فنحن في منتصف النهار، وهذا وقت الغداء، ولم أجد أنها تناولت أي وجبة أو حتى رشفة من ماء، فهي تجلس هناك وحدها منذ فترة، فلا غداء ولا ماء، فما الأمر؟ هل هي ميتة ؟ أم ماذا ؟

حاولت أن استمتع بوقتي مع أهلي، إلا أنه بين الفترة والأخرى، تقفز صورة المرأة أمام ناظري، لذلك ألتفت إليها لمحاولة أن أعرف ما الموضوع، فعرفت أنها حية، إذ إنها حركت يديها عدة مرات بين كل فترة وأخرى، ولكنها لم تقم من الكرسي الذي كانت تجلس عليه، «ما الموضوع ؟»، فامرأة كبيرة في السن حتمًا تريد أن تذهب إلى الحمام، فلماذا لا تتحرك ؟ من المؤكد أنها تريد أن تشرب ماء، فلماذا لا يوجد بين يديها زجاجة ماء ؟ ألا تشعر برغبة بتناول وجبة حتى ولو خفيفة ؟

أسئلة كثيرة بدأت تراودني، إلا أني لم أبح بهذا الموضوع لأحد، وذلك بسبب ألا ينتقل خوفي وتوتري إلى زوجتي وأولادي، حاولت أن أترك الموضوع، وأنسى وأن أعيش المتعة.

قبيل المغرب، شعرتُ أن الموضوع ليس مريبًا فحسب وإنما هناك حقيقة خافية لا أعرف ما هي، ولكن قررت بيني وبين نفسي أن أقوم بمبادرة مهما كانت خطيرة، فذهبتُ واشتريتُ قارورة ماء، ووجبة خفيفة، فذهبت إليها وعندما وصلت إليها شعرت بوجودي فقالت: «ابني.. إسحاق ؟».

قلت: لا، ولكن أنا واحد من الناس الذين يقضون وقتهم على هذا الشاطئ. وإني جئتك بقارورة ماء ووجبة، تفضلي.

فمددت يدي لها، إلا أني شعرت أنها عمياء فلا ترى، فناولتها قارورة الماء بعد أن فتحتها لها، فشربت حتى ارتوت، فشعرتُ أنها لم تشرب منذ الصباح الباكر، ثم ناولتها الوجبة، فابتسمت لي، وقالت «شكرًا.. ابني إسحاق».

حاولت أن أشبع فضولي، فقلت لها: لماذا أنت هنا ؟ هل لك أولاد هنا ؟ فردّت: «ابني.. أسحاق ؟» ولم تقل شيئًا آخر، ثم تبسمت.

لم تشف المرأة غليلي من المعرفة، فقلت في نفسي ربما لم تسمع سؤالي، فكررت على مسامعها نفس السؤال، إلا أنها رددت نفس الجملة، فاحترت، ولكن وجدت أنم من واجبي أن أغادر حتى لا أثير أي مشاكل مع هذه المرأة الغامضة، فغادرت إلى عائلتي. فبحت لزوجتي عن مخاوفي، فقالت لي

زوجتي: «ليس لك علاقة بالموضوع، أترك المرأة في حالها، أيًا ما كانت، فهناك إدارة لهذا الشاطئ يمكنهم أخذ الإجراءات القانونية حيالها».

لم اقتنع، إلا أني حاولت أن أتجاهل الموضوع.

مرت الساعات ثقيلة، ولكن الوضع كما هو، فالمرأة المسنة في مكانها لم يأت أحد للتعامل معها أو التحدث إليها، أو حتى التعطف عليها وتقديم الماء أو الغذاء لها، فكان السؤال المطروح في ذهني «أليس لها أولاد حتى يرعوها ؟ لماذا هي هنا كل هذا الوقت، من غير أن يطل عليها أحد ؟».

وعندما بلغت الساعة العاشرة مساءً، وبدأنا في تناول العشاء، وإقامة حفلة الشواء كما عملنا في الليلة الفائتة، ألقيتُ عليها نظرة، فإذا هي كما هي ولا فلم استطع أن أسكت أكثر من ذلك، فذهبت إلى المشرفين على الشاطئ فشرحت لهم الموقف، فجاء أحدهم معي، وعندما بلغنا المرأة وشعرت بوجودنا قالت: «ابني.. إسحاق ؟».

فقال لها الرجل الذي يرافقني: من أنت ؟ وماذا تفعلين كل هذا الوقت على الشاطئ؟

فقالت «ابني.. إسحاق ؟».

ولكن لفت نظري هذه المرة وجود قطعة من الورق مطوية وموضوعة في المقعد الذي تجلس عليم، فأخذت الورقة، وفتحتها وعندما قرأتها أصبت بغصة وحرقة غريبة، ومرارة، حتى بلغ بي الألم أني شعرت بألم هذه الإنسانة التي لا أعرفها، فقدمت الورقة للرجل الذي يرافقني وإذا مكتوب فيها «إلى من يجد هذه المرأة، الرجاء أخذها إلى دار العجزة، فهي عمياء وتعاني من الزهايمر، والعجز»، ومن الغريب أن الذي كتب الرسالة، كتب في نهايتها: «أبناؤها».

أي جحود هذا ؟ فمهما كانت الأعذار أو المسببات، إلا أن هذا والكثير من الأحداث التي تروى لا يمكن، وأكرر، لا يمكن أن تكون سببًا لهذا الجحود الذي يقوم بم الأبناء تجاه الآباء، سواء كنا نتحدث عن الأب أو الأم.

والغريب في الموضوع أنه لا توجد آية قرآنية واحدة يأمر بها الله سبحانه وتعالى الآباء لرعاية أبنائهم والاهتمام بهم، لأنه أمر فطري في قلوب البشر الطبيعيين، إلا أن هناك العديد من الآيات التي تحث الأبناء على البر بالوالدين، فالعكس يحدث ولكن الأصل لا يحدث، فقد قرن الله سبحانه وتعالى التوحيد ببر الوالدين في العديد من الآيات الكريمة، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة.

سأل أحدهم الإمام الشافعي: «أيتخاصم الرجل مع أبويم ؟»

فقال الإمام: «ولا حتى مع نعليهما، فإن إثبات الحجة على والديك عقوق حتى وإن كنت على حق».

يجب الملاحظة هنا، أن حتى خصام الإنسان مع أحد والديه يمكن أن يُعد عقوقًا، وهذا أمر عظيم، والخصام هنا ليس الامتناع عن الكلام والحديث، وإنما الجدل والنقاش الحاد حتى يثبت فيه المرء أن والده على خطأ، تصوروا عم نتحدث ؟

فما بالنا بالذين يهجرون آباءهم أيامًا وشهورًا وهم معهم في نفس البيت، فعندما يشاهد والده أو والدته قادمًا فإنه يخرج من المكان الذي هو فيه من أجل ألا يرى أحد أبويه.

ذات مرة، توفي والد أحد الأصدقاء، فذهبت معم إلى المقبرة، ودخلنا غرفة غسل الموتى، فوجدته يبكي بمرارة شديدة، ويقبل رجل والده، فاستغربت من كل هذا الحب، وعندما انقضت الأيام دار بيني وبين صديقي هذا الحوار البسيط عن الذي حدث أمامي عيني في غرفة غسل الموتى، وأنا مبهور بالفعل وأمدح ذلك الفعل الذي كان يفعلم وعن بره مع والده، إلا أنم انفجر يبكي، فقال كلمات لا يمكن أن أنساها «والله توفي والدي وهو غضبان علي، لأني هجرته لأكثر من سنة، وأنا لا أتصل به ولا أريد أن أتكلم معه».

فسكتُّ، ثم قال: «كان في الأسابيع الأخيرة يحاول أن يتصل بي عدة مرات في اليوم الواحد، إلا أني أرفض مكالمتم، حتى أنم ذات يوم وقف أمام باب بيتي عدة ساعات حتى يراني أو أحدثم، إلا أني رفضت وأغلقت الباب ولم أسمح لم بدخول البيت، حتى أنم حاول أن يكلم زوجتي وكذلك هي رفضت مكالمتم»، ثم بكى بمرارة لم أسمع ولم أشاهد أحدًا يبكي بهذه المرارة قط، ثم أردف: «وها هو يموت ولا أعرف ماذا أفعل ؟».

حينها تذكرت والدي ووالدتي اللذين ينامان الآن في التراب وهما بين يدي الرحمن منذ سنوات، فأسأل نفسي كما سألتها مرارًا وما زلت أسأل «هل كنتُ أنا بارًّا بهما ؟».

حاولت أن أسترجع شريط الذكريات التي كانت تربطني بهما، إلا أني لا أتذكر شيئًا، كل الأمور مبهمة رمادية، كل الذكريات غير واضحة، فحملت نفسي إلى قبريهما، ووقفت هناك وبكيت، بعد هذه السنوات، وكلِّي رجاء أن يكونا في رضا عني مهما كانت أعمالي طائشة ومتهورة معهما، ولكني والله أحبهما مهما حدث.

لذلك أقول لكل إنسان مازال أحد أبويه حيًا، أحسن إليهما في حياتهما، فمهما قدمت لهما فإنها – والله – لا تساوي نظرة حب وعطف منهما عليك في يومٍ ما، فقد كنت طفلاً وكانا يرجون لك السعادة والحياة والمتعة، فلا تعقهما مهما حدث، فقبلة منك على رأسيهما أو حتى قدميهما اليوم أفضل كثيرًا من البكاء تحت أقدامهما وهما في الكفن أو على قبرهما، عندئذ لا ينفع الندم، ولا يشعر بكلامي هذا إلا الإنسان الذي فقد والديم.